الفاشوش في حكم قراقوش الدوافع والأغراض.

م.م. رياض عبد الحسين راضي
جامعة واسط /كلية التربية

المقدمة

يأخذ كتاب الفاشوش في حكم قراقوش أهميته من مؤلفه الأسعد بن مماتي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، الذي يعد إحدى الشخصيات البارزة التي ظهرت في النصف الأول من حكم بني أيوب (٥٦٩-٥٠هـ/١١٧٤-١٢٥٢م) وعرف الرجل بإسهاماته الإدارية، إذ أسندت إليه رئاسة ديوان الجيش خلال حكم مؤسس الدولة الأيوبية السلطان صلاح الدين (٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٣م) ، ولما أثبت كفاءة إدارية أسند له السلطان صلاح الدين رئاسة ديوان المال أيضا، فأصبح بعهدته رئاسة ديوانين في آن واحد. كما شغل رئاسة ديوان المال طوال حكم السلطان العزيز (٥٨٩-٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م) ولسنة من حكم السلطان العادل(٥٩٥-٦١٥هـ/١١٩٦-١٢١٨م).

وفضلاً عن إسهاماته الإدارية، كان الأسعد بن مماتي كاتبا معروفا وأديبا مشهورا، شهد له بذلك كبار رجال الأدب في عصره أمثال القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وابن سناء الملك وغيرهم، وعرف بغزارة إنتاجه العلمي، إذ تعدت مؤلفاته الثلاثين مؤلفاً، توزعت بين الأدب والدين والشعر والإدارة والتربية والتاريخ، إضافة إلى، تلقين التفنن، وسر الشعر، وسيرة السلطان صلاح الدين، وملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار، وطريق الطليق، وترجمان الجمان، وقوانين الدواوين، وقرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج، والمنتحل، والنهاية في شرح الهداية، وخلاصة في الفروع، وباعث الجلد عند حادث الولد، والحض على الرضا بالحظ، والفاشوش في حكم قراقوش، وهو موضوع الدراسة. كما عرف عن هذا الوزير سرعة البديهة والطرفة واللذع في النادرة، وقد عكست بعض مؤلفاته ذلك أيضا، ولعل عنوانات بعضها يؤكد ذلك[١].

وتأتى أهمية كتاب الفاشوش من موضوعه الذي يدور حول شخصية قراقوش الذي يمثل وزير الحرب لدى السلطة الأيوبية، واسمه الكامل هو بهاء الدين بن عبد الله الاسدي، وهو في الأصل من آسيا الصغرى رومي النسب، سمي بالأسدي نسبة إلى اسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، أما عن لقبه قراقوش فيعني باللغة التركية النسر الأسود. وحين قامت الدولة الأيوبية قربه السلطان صلاح الدين، وجعل منه قائدا عسكريا كبيراً. وخلال عمله مع السلطان صلاح الدين قام بعدة أعمال، فضلا عن مشاركاته العسكرية في مقارعة الجيوش الصليبية. وكان من أهم تلك الأعمال إقامته لقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين)المشيدة على جبل المقطم، وبناؤه سور القاهرة، وإعادته بناء سور عكا، وغيرها من الأعمال. وبعد وفاة السلطان صلاح الدين خدم لدى ابنه السلطان العزيز، ولفترة قليلة لدى السلطان العادل، بعدها توارى قراقوش في الظل حتى وفاته سنة ٥٩٧هـ /١٢٠٠م[٢].

وتأتي أهمية الفاشوش أيضا من الأسلوب الجذاب واللغة العامية التي كُتب بها، مما كان له اثر في إقبال العامة من القراء عليه، فضلا عن نجاح ابن مماتي في جعل شخصية قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مهوس فيه بله وغفلة، مما كان له أثر في نفوس القراء، ولذلك كثر وصفه، وتعددت النوادر التي تروى عنه، والنسج على منواله، فكان للسيوطي ت(٩١١هـ/١٥٠٥م) كتاب بهذا العنوان. وعلاوة على ذلك كله فإن ابن مماتي نجح نجاحا هائلا في تشويه الشخصية بالشكل الذي جعل من قراقوش رمزاً لكل شخص مضحك .

ومن هنا، فقد حظي كتاب الفاشوش بالعناية من قبل المهتمين بتاريخ الحقبة الأيوبية وأدبها، إذ درسوا الكتاب وموضوعه باهتمام، كالدراسة التي قدمها المستشرق كازنوفا ضمن تحقيقه لحكايات الفاشوش، ونشرها تحت عنوان (الطراز المنقوش في حكم السلطان قراقوش)، وقد عالج الدافع من وراء كتابه الفاشوش، وكذلك دراسة الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه (الفاشوش في حكم قراقوش)، وما تقدم به فاروق سعد في كتابه (قراقوش ونوادره) فضلا عن المقال الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف بعنوان (الفاشوش)، والمقال المقدم من قبل محسن خضر بعنوان (قراقوش عبقرية ظلمها التاريخ) .

وعلى الرغم من فائدة هذه الدراسات في زيادة المعلومات عن كتاب الفاشوش، فإنها ظلّت بعيدة عن بيان الدافع والغرض اللذين دفعا ابن مماتي لكتابة الفاشوش، ولم توضح ما الذي يريده الكاتب من ذلك. ولهذا السبب، فان هذا البحث سيتناول معرفة الدافع والغرض اللذين دفعا ابن مماتي لفعل ذلك. وقبل الخوض في ذلك كله لابد أن نتعرف على كتاب الفاشوش.

الفاشوش في حكم قراقوش، واحد من مؤلفات الوزير الأيوبي أسعد بن مماتي، وهو كتاب يدور موضوعه– في الظاهر– حول الأمير بهاء الدين قراقوش أحد أمراء الحرب البارزين في الدولة الأيوبية، إذ وصفه بالظالم الجائر وعديم الكفاءة والدراية في الأمور الإدارية، وافتقاره للذكاء الميداني في مواجهة الأزمات، فضلا عن نعته بالخلق السيئ، وهو وصف جاء بأسلوب فكه ساخر ممزوج بالنادرة، بدا خلاله قراقوش شخصية قلقة أحمق التفكير، مغفل الطباع، متناقض الأقوال، ومضحكا في أفعاله. وسنذكر عدداً من حكايات الفاشوش تجنباً للإطالة:

الحكاية الثالثة التي تقول:

((قيل إن امرأة أتت بولدها إلى قراقوش فقالت: يا سيدي بهاء الدين إن ولدي يشتمني، فأمر بحبسه سنة، فلم تذق أمه تلك الليلة طعم النوم، فلما أصبحت راحت إلى السجانين وقالت: ما الحيلة في خلاص ولدي من هذا الحبس؟ فقالوا لها: هاتي حلاوتنا ونعرّفك ايش(أي شيء)تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش. فدفعت إليهم النقود، وقالوا لها: روحي الساعة إلى الأمير، وقولي له: يا سيدي أنا امرأة حبست لي ولدي سنة كاملة، وقد انقضت السنة، فاخرج لي ولدي من الحبس، فأتت المرأة إلى

الأمير قراقوش، فقالت له ذلك فقال لها: روحي الان، فلا جدال في انه قد بقي له من السنة سبعة أيام سوى أمس وغد. فمضت المرأة وأعلمت السجانين، فقالوا لها: هذه نعمة، فإذا كان الغد فروحي إليه وقولي له: انقضت سبعة الأيام! فأصبحت المرأة وجاءت إلى قراقوش، فلما نظر إليها قال: يا مرأة حتى تغرب الشمس! يا غلام: إذا غربت الشمس! فأطلق لها ولدها من الحبس. ولا ترجعي تجيبيه، أو يحبسوه سنتين!))[٣].

الحكاية الخامسة :

((قيل إن غلاما لقراقوش كان يشتغل عنده ركابدار(أي صاحب الركاب)، وان هذا الغلام قتل نفسا. فقال: اشنقوه ! فقيل له: انه حدادك وينعل لك الفرس، فان شنقته خسرته ولم تجد غيره. فنظر قراقوش ناحية بابه، فوجد رجلا قفاصا (أي صانع أقفاص)، فقال: ليس بهذا القفاص حاجة! فلما أتوه به قال: اشنقوا القفاص. وسيبوا الركابدار الحداد لكي ينعل لنا الفرس!))[٤]

الحكاية السادسة :

((توقف النيل بمصر أياما، فنظر قراقوش إلى جمال السقايين، وهي تمشي عشرين عشرين، ففكر طويلا وقال:لو أخذت كل هذه الجمال من البحر لنفد البحر أو كاد! ثم صاح: يا غلمان، نادوا في المدينة. قد أمر بهاء الدين قراقوش لا يملي أحد من البحر ألا جملا واحدا. ففعلوا ذلك. ثم أوفى النيل، وبلغت زيادته حدا عظيما. فقال لهم: يا هؤلاء! الويل لكم أن عدمتموني. فكيف رأيتم رأيي عليكم ؟ ما هو ألا رأي مبارك!))[٥].

الحكاية الثانية والعشرون :

((حكي أن جماعة من الفلاحين جاءوا إلى قراقوش، وشكوا إليه من خراج القطن، وقالوا له: يا مولانا السلطان، البرد شوش على القطن هذه السنة، وأنت تفرج عنا وتسامحنا من بعض المال فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل: لأي شيء أسامح في بعض المال؟ لما رأيتم البرد اشتد، كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوف لأجل ما بدفيه!..وكم استهنتم بالحكومة وبالزراعة، ولم تفتحوا أعينكم لخدمة أستاذكم..أين المشاعلي يضرب أعناق الجميع؟! فلم يقدر أحد من جلسائه أن ينقم عليه ذلك))[٦]

الحكاية الحادية عشرة:

((حكي أن قراقوش جاءه شيخ وصبي أمرد، كل منهما يقول:يا مولاي داري! وعند ذلك نظر قراقوش إلى الصبي وقال: معك كتاب يشهد لك؟ قال: لا قال الأمير بهاء الدين: فالدار إذن للشيخ الكبير. يا صبي ادفع له داره، وإذا صرت في عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك هذه الدار))[٧]

الحكاية الخامسة عشرة:

((انه –أي قراقوش – كان في كل سنة يتصدق بمال جزيل، فلما انتهت الصدقة اشتكت إليه امرأة أن زوجها مات ولا كفن له فقال : أما الصدقة بتاع هذه السنة ففرغت. ولكن إذا جاءت السنة آلاتية فتعالي نأمر لك بكفن إن شاء الله تعالى)) [٨]

بعد هذا العرض لمجموعة من حكايات الفاشوش يبرز السؤال الآتي:لماذا كتب ابن مماتي الفاشوش؟

يقول ابن مماتي عن الدافع وراء كتابته للفاشوش هو:

((إني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة {ما يحزم به } فاشوش {الاحمق } وقد اتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتاط أشتياط الشيطان، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين))[٩]

وهو قول يفهم منه أن الشعور بالوطنية والمسؤولية تجاه الدولة والرعية كان وراء تصدي ابن مماتي لذلك الأمير، لأنه يرى أن شخصية قراقوش القلقة كانت تقود الدولة إلى خراب، لاسيما وأنها تمر بظرف سياسي وعسكري حرج، إذ إنها كانت تخوض الصراع ضد الصليبيين .

وبعد استقراء المدة التي عاش أحداثها بهاء الدين قراقوش، وجد أن الصورة التي عكسها الفاشوش تتقاطع تماما مع ما سجله التاريخ عن قراقوش، فهي تناقض صورة الأخير لدى السلطة الأيوبية ورجالاتها، وتخالف تماما الصورة التي رسمها المؤرخون عن قراقوش، وتتضارب مع الرؤية الصليبية تجاه الرجل، وبخاصة لو وضعنا في الاعتبار أن الصليبيين هم أعداء للدولة الأيوبية التي يعد قراقوش واحدا من أمرائها الحربيين. وفيما يخص مكانته لدى سلاطينه، كان قراقوش يتمتع بمكانة كبيرة وثقة عالية لديهم، بل كان ضلعا في المثلث الإداري الذي ارتكزت عليه الدولة عند قيامها، والذي مثل ضلعيه الآخرين القاضي الفاضل ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م والفقيه عيسى الهكاري [١٠]، فعند اعتلاء صلاح الدين (٥٦٩ . ٥٨٩ هـ/ ١١٧٤-١١٩٣م) عرش السلطنة جعل قراقوش أمينا على القصر الفاطمي المليء بالجواهر والتحف الثمينة وأشياء أخرى لا تقدر بثمن[١١]، كما اتخذه نائبا[١٢] له على البلاد أثناء غيابه[١٣]. وكان قراقوش يمثل وزير أشغال السلطان صلاح الدين، إذ قام خلال تسلمه هذا المنصب بثلاثة أعمال شهد التاريخ بأهميتها وهي بناء قلعة الجبل، وتشييد

سور القاهرة، وترميم سور عكا ، فضلا عن أعمال كثيرة أخرى[١٤]. وللمكانة العالية التي يكنها له السلطان صلاح الدين نراه يفتديه بعشرة آلاف دينار، حين وقع أسيرا لدى الصليبيين أثناء أعادتهم مدينة عكا سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م[١٥]، وقيل ستين ألف دينار[١٦]، وبعد وفاة السلطان صلاح الدين خدم لدى ولده السلطان العزيز (٥٨٩ ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ . ١١٩٨ م) الذي كان هو الآخر ينيبه على البلاد عند خروجه للقتال[١٧]، وهو أمر يدل على المكانة والثقة العالية التي يكنها السلطان لقراقوش. وبالمقابل كان الأخير أهلا لهذه الثقة وللمكانة الرفيعة، وأمينا في خدمة السلطان، وانعكس ذلك من خلال إحباطه المؤامرة التي حاك خيوطها الملك العادل عم السلطان نفسه، وذلك بالتعاون مع فرقة المماليك الاسدية التي يشكل قراقوش جزءا منها[١٨] وهو أمر يعكس إخلاص قراقوش الكبير للدولة الأيوبية المتمثلة بالسلطان العزيز.

ونظراً لما يتمتع به من مزايا خاصة ، وقدرات عالية جعلت السلطان العزيز يسند إليه منصب شاد[١٩] الدواوين، وذلك في ربيع سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م [٢٠]، وإصلاحا للوضع الاجتماعي المتدهور الذي تخلل حكم العزيز رأى الأخير أن يسند منصب رئاسة ديوان المظالم إلى قراقوش، لما رأى فيه من كفاءة وعدالة في الأداء[٢١]، وللثقة العالية أناط به السلطان العزيز كي يكون وصيا على ابنه المنصور (٥٩٥ . ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ . ١١٩٩م)، لكن ظروفا استجدت بعد وفاة السلطان العزيز جعلت من الأفضل ابن السلطان صلاح الدين وصيا بدلا من قراقوش[٢٢]، وعلى الرغم من هذا الأجراء فلم يبد قراقوش أي اعتراض على ذلك الأجراء بل ظهر رجلا مخلصا رهن إشارة سيده الأفضل[٢٣]. وعند انتقال عرش السلطنة إلى أخ السلطان صلاح الدين الملقب بالعادل (٥٩٥ . ٦١٥ هـ / ١١٩٦ . ١٢١٨ م) كان قراقوش قد بلغ به السن، ولم يبق من عمره إلا اشهر قليلة أبى أن يقضيها في الراحة، بل قام خلالها بأعمال عمرانية شهد له التاريخ بها[٢٤].

أما عن مكانته بين رجالات الدولة، فالقاضي الفاضل الذي شغل منصب رئيس ديوان الإنشاء و تمتع بمكانة مرموقة في الدولة الأيوبية، كان يمدح الأمير قراقوش في كل رسالة يمر ذكره بها[٢٥]، فضلا عن انه قاطع الاجتماع الذي عقد من اجل البت في أمر أبعاد قراقوش عن وصاية الملك المنصور، وحين طلب رأيه في ذلك امتنع[٢٦] مدللا بذلك على مدى ما يكنه لقراقوش من احترام وما يحظى لديه من مكانة عالية، أما العماد الأصفهاني ت ٥٩٧ هـ /١٢٠١م المرافق للسلطان صلاح الدين في حملاته الحربية فكان يرى في قراقوش رجلا عالي الهمة، لا يقارع ذا المواقف المعروفة والأعمال الجليلة[٢٧]، ويشاطره في رأيه هذا ابن شداد ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م كاتم سر السلطان صلاح الدين أيضا[٢٨].

وفيما يتعلق بمكانته لدى المؤرخين فقد كان قراقوش يحظى لديهم بمنزلة لا تقل أهميتها عن السابقة، إذ انه كان يوصف بالرجل صاحب الهمة، والشجاعة، ووقار العقل، وجمال النية فضلا عن انهم كانوا يرون في وصف ابن مماتي لقراقوش زيفا لا أساس له من الصحة[٢٩].

أما صورة قراقوش لدى الصليبيين فقد وصفوا شخصيته بأنها شخصية محاربة، روحها غريبة كثيرا ما أدهشتهم وأثارت إعجابهم لما تحمله من مهارة وقدرة وجلد وعزيمة حتى انهم نظروا إليه على انه جندي وقديس في آن واحد[٣٠].

إن هذا الاستقراء يقود إلى ثلاثة احتمالات ملحة هي:

١-إما أن يكون الفاشوش جاء تعبيراً عن عداء دفين يكنه ابن مماتي لقراقوش يرجع في أسبابه إلى خصومة سياسية شخصية يتداخل فيها الحسد والغيرة والمادة .

٢-أو أن يكون تعبيرا عن حقد ابن مماتي على الدولة الأيوبية .

٣-أو أن يكون ما جاء في الفاشوش لا يتعدى أن يكون الصورة الحقيقية لقراقوش، وان ما ورد من صور أخرى عن قراقوش ما هي إلا صور عكستها مرايا محدبة.

لكن هذه الاحتمالات الواردة لا يمكن الاستناد إلى أيٍّ منها، لأنه ليس هناك ما يثبت أن علاقة عدائية كانت بين الاثنين، فالمصادر التاريخية لا تنوه ولا تشير إلى مثل هكذا علاقة لا المعاصرة لهما ولا المتأخرة عنهما، ثم إن ابن مماتي لم يشر في شعره الساخر الذي وصل إلينا لا من قريب ولا من بعيد إلى شخصية قراقوش. وان افترضنا جدلاً أن هناك علاقة عدائية بين الاثنين، فامّا ان يخشى ابن مماتي ردود فعل الدولة الأيوبية التي يحظى لديها قراقوش بمكانة كبيرة، وأما انه يخشى قراقوش نفسه، لاسيما انه أناب السلطان صلاح الدين عن البلاد عدة مرات والنائب له صلاحيات واسعة وسلطة كبيرة، منها عزل الموظفين ومعاقبتهم.

أما ما ذهب اليه المستشرق الفرنسي كازانوفا من أن الفاشوش صورة غضب وحقد موجهة من ابن مماتي ضد الدولة، وانه **((اثر لحادث خطير وهو سقوط الفاطميين وانه يعتبر المظهر الأخير لبغض مصر وأهلها لكل فاتح لبلادهم وهو بغض أيقظه في نفوسهم انهيار الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التي أعادت الأمر إلى بني العباس))**[٣١] نقول إن عدّ ابن مماتي واحدا من الموتورين الذين سخطوا على الدولة الأيوبية، يفنده إخلاصه المتمثل بالمحافظة على أسرار الدولة، وهذه حقيقة ملموسة لدى من يقرا كتابه قوانين الدواوين، ويؤكدها ابن مماتي حينما سوغ عدم ذكره للمعلومات المتعلقة بالوحدات الإدارية للبلاد لما لها من أهمية في أمن الدولة الاقتصادي والعسكري في وقت كانت فيه المعركة محتدمة مع الصليبيين إذ قال: **((لما كانت هذه الأعمال ومسايحها من أسرار الدولة التي لا يجوز أشاعتها ولا يمكن إذاعتها، تجاوزت عنها، ولم أتعرض لشيء منها))**[٣٢]، وان مثل هذه المعلومات أسرار كبيرة فعلا، كما أنها لم ترد في كتاب قوانين الدواوين، فضلاً عن أن مثل هذا الاعتقاد يدحضه تنبيه ابن مماتي على مواطن الضعف في الدولة الأيوبية[٣٣]، وحسن الأداء الذي أظهره خلال تسلمه منصبي ديوان الجيش والمال معاً، في وقت تزامن مع حراجة الموقف السياسي للدولة على الصعيد الخارجي[٣٤]، كما انه هناك ما يشير إلى أن ابن مماتي خرج عن خط الدولة، ولو كان حاقدا ويسعى إلى خراب الدولة لما اختير رئيسا لديوانين في آن واحد، لاسيما وان الدولة تخوض صراعها المستميت مع الصليبيين، ولم يكن خافيا على السلطان صلاح الدين كفاءة رجالات دولته، وليس صعبا عليه وضع الرجل المناسب في مكانه المناسب، وبخاصة إذا علمنا أن الدولة كانت تمتلك رجالات على درجة عالية من الذكاء والكفاءة الإدارية، كالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن شداد وغيرهم. كما لا يمكن لابن مماتي أن يمارس نشاطا معاكساً للدولة ويخفيه على أولئك، ثم أن التاريخ لم يسجل أية خيانة لأسرة ابن مماتي تجاه الدولة.

وإذا كان الأستاذ كازونوفا يقصد أن ابن مماتي أراد أن يصور في الفاشوش سخط أهل مصر على الدولة الأيوبية التي هدمت قوميتهم ومصريتهم بوصفها أجنبية كردية الأصل، وجعلتهم تابعين للخلافة العباسية بعد أن كانوا مستقلين في ظل الدولة الفاطمية، فهي فكرة سبق أن فنّدها الدكتور عبد اللطيف حمزة في معرض رده على ذلك، إذ ذكر أن أهل مصر نظروا إلى السلطان صلاح الدين على انه بطل المسلمين وصاحب الفضل الأكبر في إنقاذهم من أيدي الصليبيين، في وقت كانت الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في مصر عاجزة عن درء الخطر الصليبي عن نفسها وعن الإسلام، زد على ذلك أن السلطان صلاح الدين لم يكن تابعا للخلافة العباسية، بل بقى مستقلا وكل ما فعله هو انه دعا للخليفة العباسي على منابر القاهرة والحواضر الإسلامية التابعة للدولة[٣٥].

أما إذا أخذنا بالاحتمال الثالث فهذا يعني الحكم بغفلة أسد الدين شيركوه ت ٥٦٧ هـ /١١٧١م، الذي خدم لديه قراقوش حين كان شيركوه وزيرا في حكومة الخليفة العاضد الفاطمي (٥٥٥ . ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ت ١١٧١ م)[٣٦]، وان قلنا إن قراقوش كان غامضا على أسد الدين شيركوه، فكيف كان الأمر مع السلطان صلاح الدين الذي خدم لديه اثنين وعشرين سنة من ٥٦٧ .٥٨٩ هـ/ ١١٧١ . ١١٩٣ م، وان افترضنا جدلاً انه غمض على السلطان صلاح الدين، فكيف يكون الأمر مع السلطان العزيز والملك الأفضل والسلطان العادل الذين خدم لديهم قراقوش، وكيف يلتبس أمره على القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وابن شداد ويتجاوز تمحيصات المؤرخين؟ وان كان قراقوش هكذا فما الذي يجعل الأعداء الصليبيين يرونه عكس ما كان مصوراً له في الفاشوش؟ ثم إذا كانت صورة قراقوش كما رسمها الفاشوش لما أحرزت الدولة الأيوبية انتصاراتها على الصليبيين يوم كان قراقوش قائداً حربيا في جيوشها ولا حققت إنجازاتها العمرانية التي جرى بعضها تحت الإشراف المباشر لقراقوش نفسه.

إذن الفاشوش لم يمثل صورة عداء بين ابن مماتي وقراقوش، ولم يكن صورة حاقد موتور على الدولة الأيوبية ولا يعكس حقيقة قراقوش، فما هو الفاشوش إذن؟ في ضوء ما سبق نخلص إلى أن كتاب الفاشوش لم يكن إلا وصفا لظواهر سلبية في النظام الإداري للدولة الأيوبية، مثل الرشوة التي تعكسها الحكاية الثالثة، وظلم الرعية الذي تجسده الحكاية الخامسة، وقلة الكفاءة لدى موظفي الإدارة وعدم قدرتهم على معالجة الأزمات التي تتعرض لها البلاد والمتمثل بالحكاية السادسة، والظلم الذي يمارسه موظفو الضرائب ضد الفلاحين وهو ما ترويه الحكاية الثانية والعشرون، والإجراءات غير القانونية التي كان يمارسها بعض الموظفين في مسألة عقود البيع والشراء والتأجير ولعل الحكاية الحادية عشرة توضح ذلك.

إن مثل هذه الظواهر أو بعضها صرح به ابن مماتي في بعض أشعاره كوصفه لعمليات السرقة التي يقوم بها الجهابذة[٣٧] عند تنظيمهم المخازيم[٣٨]، إذ يقول:

مخازيم تضمنت المخازي

يجوز فعلها ما لا يـجوز

لصوص يرفـعون إلى

لصوص حسابهم وبينهم رموز[٣٩]

وفي مناسبة أخرى يقول:

مخازيم عملن بغير ميم

لديوان الخراج بـــغير جيم[٤٠]

بيد انه أعلن عن هذه الظواهر بصراحة اكثر في كتابه قوانين الدواوين الذي ألفه في زمن العزيز، وكان يهدف من ورائه الى معالجة تللك الظواهر لاسيما المتعلقة بموظفي الدولة، فقد ذكر فيه الرشوة، وقله الكفاءة لدى موظفي الإدارة، والظلم الذي كانوا يمارسونه ضد الرعية، كما فعل مساح الاراضي مع الفلاحين عند استخدامهم طرق حسابية غير منطقية، قوامها سرقة الفلاح، فضلا عن ابتزاز مؤجري مراكب الدولة من الرعية من قبل الموظفين المسؤولين عن تأجير تلك المراكب، والإجراءات غير القانونية التي كان يمارسها موظفون آخرون عند تحريرهم لمعاملات الناس المتعلقة بتأجير الاراضي الزراعية بالشكل الذي يخالف ماهو متبع رسمياً، فضلا عن سوء تصرف بعض الموظفين باموال الدولة واهمالهم لمواردها وسوء ادارة مؤسساتها، وغير ذلك، متوخيا من تشخيصه لتلك الظواهر ان يكون نصيحة للدولة من اجل تجاوزها[٤١]. وربما أراد ابن مماتي ان تكون نصيحته في كتاب الفاشوش– ولظروف خاصة –على غرار النصيحة المتبعة في كتاب كليلة ودمنة الذي يُعد واحداً من مقروءات ابن مماتي، بل واحدا من الكتب التي كان لها وقعٌ في نفسه، وهذا الأمر يعكسه نظمه لكتاب كليلة ودمنه شعراً كما اشارت إلى ذلك المصادر التاريخية[٤٢]، ولعله فعل ذلك وفقاً للحكمة التي تقول **(اخبر السلطان بعيبه من غير ان تواجهه)**. وبذلك فابن مماتي لم يكن يقصد بالفاشوش الامير بهاء الدين قراقوش، والأخير نفسه يعلم ان ابن مماتي لم يكن يقصده، وحتى السلطة الأيوبية تدرك ذلك وتعرف جيدا ان ابن مماتي كان يريد بالفاشوش ايصال رسالة الى المعنيين بالدولة تثير انتباههم على نقاط الفساد ومواضع الخلل. ولما كان اصلاح مثل ذلك لا يتم بمعزل عن الرعية كتب ابن مماتي كتابه باللهجة العامية الدارجة بأسلوب يثير رغبة القارئ، من اجل أن تصل رسالته لجميع افراد الدولة اداريين ورعية.

ملخص

يدور هذا البحث حول كتاب (الفاشوش في حكم قراقوش) المؤلف من قبل الوزير الأيوبي اسعد بن مماتي ت(٦٠٦هـ–١٢٠٩م)، يتخذ المؤلف من شخصية قراقوش ت٥٩٧هـ–١٢٠٠م)موضوعا له، وقراقوش هو أحد أمراء الحرب البارزين في دولة بني أيوب، إذ وصفه بالأمير الظالم وغير الكفوء إداريا ، والسيئ الخلق، وجاء وصفه هذا بأسلوب فكاهي ساخر ممزوج بالنادرة . راسما له صورة بدا فيها قراقوش شخصية قلقة ، حمقاء التفكير مغفلة الطباع ، أقوالها متناقضة ، أفعالها مضحكة .

جاء هذا البحث ليجيب على أسئلة ملحة تتعلق بالكتاب وموضوعه وهي:ما هي الدوافع والأغراض التي دفعت ابن مماتي لكاتبة هذا الكتاب ؟ ولماذا اتخذ من قراقوش موضوعا له ؟وهل كانت شخصية قراقوش فعلا مثل ما صور لها في الفاشوش ؟ ولماذا كتبه ابن مماتي باللهجة العامية الدارجة؟

الهوامـــش:

(١) عن ابن مماتي ينظر: رياض عبد الحسين راضي البدراوي،اسعد بن مماتي وكتابه قوانين الدواوين، رسالة ماجستير غير منشورة ، (جامعة بغداد . كلية الآداب . ١٩٩٧) ص٢٨-٨٦.

(٢) عن قراقوش ينظر :المرجع نفسه ، ص٧١-٧٧.

(٣) عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٩٤٥) ص١٠.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢.

(٥) نفسه،ص١٣.

(٦) نفسه، ص٢٧.

(٧) نفسه،ص ١٨ .

(٨) نفسه، ص٢٠.

(٩) فاروق سعد، قراقوش ونوادره، ط١ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠)، ص ٦٨.

(١٠)عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش، ص٣؛محسن خضر، قراقوش عبقرية ظلمها التاريخ، مجلة الخفجي، العدد ٥، (السعودية : ١٩٨٩) ص١٧.

(١١)الفتح بن علي بن محمد البنداري، سنا البرق الشامي، تحق : فتحية النبراوي، (القاهرة :مكتبة الخانجي، ١٩٧٩)ص١١١(وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للعماد الاصفهاني)؛ محمد بن احمد بن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحق :محمد مصطفى ، (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية، ١٩٧٠) ج١، ق١،٢٣٧.

(١٢)النائب:وظيفة إدارية يتمتع صاحبها بصلاحيات واسعة منها تعيين الموظفين وعزلهم وتوزيع الإقطاعيات وغير ذلك ، ينظر تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحق:محمد النجار وآخرون، ط١(القاهرة:دار الكتاب العربي، ١٩٤٨)، ص ٦٢١ ؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ألمانيا الاتحادية،جامعة فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، ١٩٨٨) ٢٢١/٣(طبعة مصورة).

(١٣)احمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحق : محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة :مطبعة السعادة ، ١٩٤٨) ج٣،ص٢٥٤؛عبد الله بن ايبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحق: سعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة :١٩٧٢) ١٥١/٧؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة:المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،د.ت) ١٧٨/٦.

(١٤)ينظر نظير احسان سعداوي،التاريخ الحربي المصري في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧) ص١٣٤.

(١٥)ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣،ص٢٥٤؛ الدوادري، كنز الدرر، ١٥١/٧؛المقريزي، الخطط،(القاهرة:مطبعة بولاق،١٨٥٣)، ١٢٣/٢؛ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،١٧٦/٦.

(١٦)ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٥٤/٣؛الدوادري، كنز الدرر، ١٥١/٧؛احمد بن محمد بن أبى عذيبة ، تاريخ دول الأعيان ، مخطوط ، العراق ،دار صدام للمخطوطات ، رقم ١٢٤٧٩ج٥، ورقة،٢٣٦أ.

(١٧)بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين، تحق: جمال الدين الشيال، ط١،(القاهرة :الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر،١٩٦٤) ص٢٣٩.

(١٨)المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح: محمد مصطفى زيادة، (القاهرة:مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤)ج١،ق١٢٥،١.

(١٩)الشاد:وظيفة عسكرية مهمة القائم بها مصاحبة جباة الضرائب لتوفير الحماية لهم من تجاوزات المطالبين بها وإرغامهم فيما إذا حاولوا المماطلة على دفع ما عليهم من ضرائب، السبكي، معيد النعم، ص٢٨.

(٢٠)المقريزي، السلوك،ج١،ق١٣٢،١.

(٢١)المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٢٢)جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحق: جمال الدين الشيال، (القاهرة :دار القلم، د. ت)ج٣،٨٩.المقريزي، السلوك،ج١،ق١،ص ١٤٦.

(٢٣)عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش،ص٣٠.

(٢٤)ينظرعن ذلك المقريزي، الخطط،ج٢،٣١٢.

(٢٥)عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش،ص٦٨.

(٢٦)ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣،٩٠؛المقريزي،السلوك، ج١،ق١،١٤٦.

(٢٧)العماد الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي،(ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٧) ص١١٨.

(٢٨)ابن شداد، النوادر السلطانية ،ص٢٤٠.

(٢٩)ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣،ص٢٥٥؛ الدوادري، كنز الدرر، ج٧،١٥١؛المقريزي، الخطط،ج١،٢ ٣٢؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦،١٧٨؛ابن أبى عذيبة، دول الأعيان،ج٥،ورقة٢٣٦أ.

(٣٠)فاروق سعد، قراقوش ونوادره،ص ص ٣٥-٣٦.

(٣١)عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش،ص٦٥.

(٣٢)اسعد بن الخطير بن مهذب ابن مماتي، قوانين الدواوين، تحق: عزيز سوريال عطية، (القاهرة:مطبعة مصر، ١٩٤٣)ص ٥٥.

(٣٣)البدراوي، اسعد بن مماتي، ص ص١١٢ -١١٣.

(٣٤)ينظر المرجع نفسه،ص - ص ٤٨ - ٥١.

(٣٥)عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش،ص٦٦.

(٣٦)ينظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣،ص٢٥٤.

(٣٧)الجهبذ:هو أحد موظفي ديوان المال وتقع عليه مسؤولية حفظ ما يرد من اموال وتحديد الجهة التي ارسلتها وكتابة الإيصالات التي تتعلق بها. ومن مسئوليته عمل السجلات التي تعرف بالمخازيم وعمل قوائم يعرف بعضها بالروزنمجات والآخر يشار له بالختمات. البدراوي،اسعد بن مماتي،ص١٤٩.

(٣٨)المخازيم سجلات تحوي جملة من المعلومات التي تتعلق بالفلاحين وطريقة استغلال الارض كأن تكون مقاسمة اومناصفة أو مثالثة ....الخ، والرسوم المترتبة عليها وما صرف من بذور. طرخان، إبراهيم علي، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، (القاهرة:دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨)،ص ٢٥٠.

(٣٩) جمال الدين أبو الحسن علي الازدي ابن ظافر بدائع البدائه، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٧٥)ص ١٩٨.

(٤٠) صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الغيث المنسجم في شرح لامية العجم (بيروت: دار الكتب العلمية) ١٩٧٥، ج٢،ص٤٢٨.

(٤١) البدراوي،اسعد بن مماتي،ص ص ١١٢ –١١٣.

(٤٢)ينظر المرجع نفسه ، ص ٥٨.